بناء الرواية الجزائرية المعاصرة وتوظيف التراث
رواية تجربة في العشق للطاهر وطار نموذجا

Building the contemporary Algerian novel and employing heritage The novel of an experience in love by Al-Taher Wattar is a model

فوزية براهيمي*

جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)، brahimi.fouzia@univ-guelma.dz*

تاريخ الاستلام: 2021/09/10 تاريخ القبول: 2021/12/13 تاريخ النشر: 2021/12/26

ملخص:

رواية تجربة في العشق من الأعمال التي سجّلت تميزها في قائمة إبداعات الطاهر وطار، فهي تجسد منعرجا خاصا في مساره الروائي الذي طالما تمتع بالبحث عن التّجدد والتغيير.

لذلك يهدف هذا المقال إلى الكشف عن طبيعة البناء السردي في هذه الرواية ومحاولة الكشف عن خيال الكاتب وطريقته في تجسيد حلمه في تخريج روايته ضمن صورة فنية مشوقة يمكن إدراجها تحت مسار أو مسمى الأدب المعاصر.

كلمات مفتاحية: *الرواية المعاصرة، الطاهر وطار ،رواية "تجربة في العشق" ،توظيف التراث.*

Abstract:

The novel "An Experience in Love" is one of the works that recorded its distinction in the list of Taher Watar's creations. It embodies a special turning point in his novelist path, which he has long enjoyed in the search for renewal and change.

Therefore, this article aims to reveal the nature of the narrative structure in this novel and to try to reveal the writer's imagination and his way of embodying his dream of graduating his novel within an interesting artistic image that can be included under the path or title of contemporary literature.

***Keywords**: keywords; keywords; keywords; keywords; keywords.*

* المؤلف المرسل : فوزية براهيمي، الإيميل: **brahimi.fouzia@univ-guelma.dz**

–مقدمة:

إن القارئ للرواية في شكلها الجديد، لا يطّلع على عالم طبيعي مألوف، بل يجد نفسه في جو يبعث على الحيرة، حيث تختلف المفاهيم، وتضطرب العلاقات، ولا تسير فيها الشخصيات وفق القوانين المعتادة؛ لأنّها شخصيات متوترة ومضطربة منذ البداية، مما يثير الدّهشة عند القارئ ويفرض عليه جوّا من القلق والتوتّر، فالعالم الجديد الذي يهب نفسه عند تقليب الصفحات لا يبدو منطقيا، ولا تقدّم فيه التفسيرات المطلوبة، ولا يحاول تهيئة القارئ قبل ولوجه لهذا العالم.لهذا ستحاول هذه الورقة طرح بعض التساؤلات التي تتعلّق بكيفية تعامل الرّواية الجزائرية من خلال مبدعها الطاهر وطار مع هذه المفاهيم الجديدة، وما هو حظّها في عملية البحث عن التّميز والخصوصية من خلال روايته "تجربة في العشق". وماهي أهم العناصر التي أسّست البناء الروائي المعاصر.

1. تجربة في العشق وتجربة المعاصرة:

رواية "تجربة في العشق" هي رواية متفرّدة، تعبّر بوضوح عن تجربة الكتابة الروائية المعاصرة، لأنّها حملت ومنذ البداية شعار الخصوصية، فهي تمارس عملية الجذب والإثارة، لكن على طريقتها، لأنّها لا تستعرض صور الأشخاص، والأماكن والأزمنة فتصفهم، أو تكشف عنهم من خلال حوارهم، كما جرت العادة في الرواية التقليدية، بل إنّها تختار لنفسها شعار المفاجئة المشوبة بالصدمة، إنّها تأسر المتلقي لكن ليس بجمال الصور وطريقة وصف الأحداث والأشخاص، بل تأسره بمشاعر الغرابة والاستغلاق، الشيء الذي يبعث جوّا من القلق والتوتّر، و يوحي بحالة من التأزم والضيق والانحباس، وهي فعلا المشاعر الملازمة لكامل أجزاء الرّواية، ولشخصية بطلها الذي يعيش حالة شديدة من التأزم والقلق والتوتر، الشيء الذي ينقله إلى حالة من الهوس والهذيان والجنون، كل هذه العوامل ساهمت في خلق جو من الامتناع والانغلاق، مما يوحي بأن النص منكفئ على ذاته، لا يغدو أن يكون وعاءفنيا توسل إليه الكاتب لضغط المطلق، واختزال اللامحدود"[1] متخذا طريقة الهوس والجنون، لتكون أحسن معبر عن جو الاختناق، وعدم الانسجام مع الواقع، وهي من التقنيات المستعملة في الرواية المعاصرة التي تكتب بأسلوب وعر، لا للدلالة على قدرة المؤلف وبراعته، بل للدلالة على وعورة الحياة التي يعبر عنها في روايته، "فالأسلوب الوعر، الأكثر عصبية، والأكثر كثافة، بل والأكثر غموضا ... لا يعني فقط رفض الزخرفات والرغبة في عمل أسرع، بل إنه يشير علاوة على ذلك إلى الهوى الشخصي

للمؤلف، إنه يشير بالأخص إلى أن التخيل الأدبي قد أصبح يعتبر عرضا نموذجيا للوعي، لا كمشهد يتفرج عليه" [2] فحسب بل كجو يرمى فيه القارئ ليشارك شخصياته المشاعر ويتقاسم معها توترها وعدم استقرارها.

وقد عبرت الرواية عن كل هذه المشاعر بطريقة يطبعها التفكك والتقطع، الناتج عن الانتقال السريع والمكثف عبر المواضيع، وبشكل غير منتظر ضمن قالبه الهذياني الذي يوحي بشدة النوبات الجنونية التي تجتاح نفسية البطل وفكره، لتتطاير كلماته المونولوجية متناثرة عبر جسد الرواية، صارخة بالانشطار والتشظي، ومن أبرز هذه المظاهر وأكثرها تكرارا، نجد كلمة مجنون التي تِؤرق البطل وتشتت كيانه المتعثر عبر أحرفها المنفصلة والمفككة (م، ج، ن..و..ن..).

كما يداهم القارئ أيضا بانتشار تلك النقاط المتتالية التي تحاصره وتحيله على عالم السكوت الذي يقوم "على تدبير للصمت عجيب، يتجاذب لديه كل من الافضاء والكف، والتحقيق والإمكان، والغموض والجلاء"[3].

مما يحيل على أدبية الحذف وما لهذه التقنية من تأثير على النص الأدبي المعاصر وقد تجسد هذا عبر جسد الرواية في حوار البطل مع معشوقه، فنجد أن النقاط تحل محل الكلام، لأن المجال يترك للإحساس بدل الكلمات التي لا تتسع لحجم هذا الإحساس:

".....

- موظف سام نعم
- .....
- عمر الإدارة الجزائرية لا يحسب
- .....
- كل شيء سيصلح في إبانه"[4].

فحذف الكلام، له وقع أشد وأقوى من ذكره، ويدخل هذا ضمن ما يسمى بجمالية الصمت، لأنه فتح لمجال التصور والتخيل بالنسبة للقارئ، وبالتالي إشراكه في خلق عالم الرواية، فالروائي

بعمله هذا أشبه بالنحات الذي يشكل عمله الفني بالحذف وليس بالزيادة، فنجده يبتر أحد مكونات عمله، يد، أو ساق، أو ما شابه.

إضافة لتقنية الحذف وما يترتب عليها من نقاط متتالية، نجد أن الرواية عبرت عن حالة أخرى لا تقل أهمية، مصاحبة لحالة الهوس، وهي الدهشة التي يترتب عنها التلعثم، مما يوحي بصعوبة المواقف والأحاسيس التي يعايشها البطل، وقد عبر عنها الروائي باستعمال تقنية التكراروهي بدورها تحيل على عدم قدرة الكلمات على التعبير، وأن اللغة تخون صاحبها إذا كانت المشاعر أكبر وأعظم من أن تحتويها العبارات ومثاله نجده في:

- "هاك وهات.
- هات وهاك.
- أنت هنا؟
- أنت هنا.
- كلنا هنا" [5]

ومما يوحي بالانبهار أيضا نجد أن الروائي لا يكتفي بإيراد اللفظة الواحدة لتأدية المعنى المطلوب، بل إنه يؤكد عليها من خلال مشتقاتها الممكنة مثل: "ينظر، نظر، أنظر، نظرت" [6] وذلك لغرض المبالغة والتأكيد على فعل النظر إلى المعشوق، وكأن الروائي يحاول من خلال إيراد هذه المشتقات أن يعتصر الكلمة ويستخرج كل ما فيها من معان دالة على النّظر.

ونتيجة لانتشار هذه المظاهر الدالة على التفكك، نجد أن لغة الرواية فقدت استقرارها وانسيابها، وهذا ليس دليلا على ضعفهاأوتدني مستواها، بل هو على العكس من ذلك دليل على العالم النفسي والفكري الذي صدرت عنه، والذي فقد استقراره، لذلك نجد أن النص المتمسك بالقواعد والتقاليد الروائية في مثل هذا المقام نص فقد جاذبيته، "إنه يبدو كاذبا، لأن هذه الثقة الأدبية في الأسلوب والإنشاء تبدو وكأنها تمت إلى إنسان مطمئن لا يهدده شيء" [7].

فالإبداع الأدبي المعاصر أصبح يستقي جماليته ويضمن تناسقه من خلال الانسجام الحاصل بين الشكل والمحتوى، فالرواية بهذا تتخللها "نزعة إلى تحويل الشكل إلى معنى، وتحويل المعنى إلى

شكل"[8] ولذلك نجد أن معاني القلق والتشظي والتمزق الداخلي التي يعانيها البطل ليست مجرد كلمات توصف بها حالة ما، بل إنها حالة تظهرها الرواية عبر جسدها ومن خلال الطريقة التي كتبت بها، من خلال ما يسمى بالفضاء النصي (L'espace Textuel) الذي يقصد به الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها باعتبارها أحرفا طباعية على مساحة الورق، أي حيز الصفحة، وحروفها، وفراغها، وبياضها، إضافة لما يهتم به الفضاء النصي من دراسة لتصميم الغلاف، وتنظيم الفصول، وتغير الكتابة المطبعية، وتشكيل العناوين.

إن لدراسة الفضاء النصي أهمية كبرى لأن له علاقة وطيدة بالناحية الدلالية، فالبياض مثلا يساهم في فهم الانتقال سواء من موضوع لآخر، أو من مكان لآخر أو من زمن لآخر، ولذلك يعمد الكاتب لتقوية سرده بوضع طائفة من الإشارات وعلامات الوقف في جمل داخل النص المطبوع، فالتقاء فضاء الألفاظ بفضاء الرموز الطباعية ينشأ فضاء جديدا هو الفضاء الموضوعي للكاتب (L'espace Objectif) أو الفضاء الذي يجري فيه اللقاء بين وعي الكاتب ووعي القارئ" [9].

إضافة إلى تقنية الحوار الداخلي أو المونولوج التي سيطرت على الرواية بأكملها، فهو الأمثل لاستعراض الحالة النفسية للبطل وكل ما يمر بذهنه من ذكريات ماضية وأحلام وآمال وأفكار، وكوابيس، ووجهات نظر تجاه الأحداث، وهو الأمثل أيضا من حيث التعبير عن الحالة العاطفية وتجربة العشق المنفردة.

والحوار الداخلي هو "اتصال بقصة تروى بصيغة المتكلم" [10]، ينقل لناالرواية أثناء معايشتها، فلا يتلقاها القارئ بواسطة، لذلك فإنه يشعر وكأنه متواطئ مع الشخصية أو شاهد عليها، ولأن هذا الحوار جاء في شكل فلتات جنونية ولغة هذيان محمومة، كما هو الحال بالنسبة لبعض الكتابات الروائية المعاصرة، مما جعل البعض يذهب لاعتبار شخصيات هذا النوع الروائي الجديد شخصيات عصابية وشاذة، لكن الرواية المعاصرة في حقيقتها تقدم أشخاصا عاديين في إطار غير عادي، لأنها تركز على دواخلهم مما يؤكد مشاعر الاستلاب والغربة التي يحيا في ظلها أبطال هذا النوع، فكل شخصية إنسانية تعالج على مستوى فردي تبدو غير عادية.

لقد جسدت رواية "تجربة في العشق" وجها من الوجوه الكثيرة الباحثة عن هوية الكتابة السردية المعاصرة لأنهاعارضت ورفضت بشدة الشكل التقليدي للرواية الذي يعتمد الوصف والسرد،

وتطغى عليه نظرة المؤلف ونبرة صوته المدوية في التعبير عن الأمور، كما يسيطر الحوار الخارجي للشخصيات، ولغتها المتناسقة، المتقنة الأسلوب. فهي رواية تهتم بالإنسان، من حيث عقله المشتت، وكيانه المتجزئ بين كل ما يضطرم فيه من أحلام وذكريات وأخيلة، لا يسمح الواقع بتجسيدها ولا التعبير عنها. هذا ما ولد حالة الكبت والاختناق التي عاناها البطل لتنتهي به إلى حالة من البحث التراجيدية عن تجربة يستعيد من خلالها ذاته الضائعة، ويثبت بها وجوده المغيب.

كما كان لهذه الرواية تميزها وخصوصيتها عن أسلوب الكتابة السردية التقليدية منحيث لغتها، وفي زمان قصها، في العلاقات بين بطلها والأمكنة وما تحويه من موجودات وأشياء، وفي رسمها لذاكرة البطل وهو يلتفت إلى الماضي بحثا عن الحقيقة، ويتحرك في الحاضر بين تعدد الأقوال واختلافها، لتتظافر هذه العناصر في تأثيث فضاءها الذي يمتزج فيه المتخيل بالواقعي، والأسطوري بالتاريخي، السياسي والديني مع الشعبي، فيبدو فيها كل شيء متداخل لا يمكن استيعابه إلا من خلال الاستسلام لعملية القراءة والاكتفاء بالاسترسال مع حركة الهذيان ، و الرضا بالدخول في دهاليز عالها. هذا التداخل لا يسعنا إلا وصفه بأنه تزيني فني، ومغامرة القراءة الاسترسال هذه لا يمكن انكار ما فيها من متعة رغم عنف أسلوب الرواية وتوتره وضبابيته.

2.الرواية المعاصرة وتوظيف التراث:

يعد التراث أو الثقافة مكونا من المكونات الهامة لشخصية كل كاتب أو مبدع، لأنه نشأ وكبر داخل هذا الجو، لذلك فالعلاقة بين الإبداع الأدبي وهذا التراث لا شك أنها ستكون علاقة تفاعل أو تأثير وتأثر.والحديث عن التراث أو الثقافة لا ينحصر في المكون المحلي أو الشعبي فحسب بل يشمل كل المكونات الفكرية المحلية والعالمية، الحاضرة والتاريخية، الشعبية العامة أو المؤسساتية التعليمية.

لكن ما يمكن ملاحظته على توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة كونه توظيف لا يعكس مجرد تأثر لا واع، أو انعكاس لما عاشه واغترفه المبدع عامة والروائي على وجه الخصوص منذ الصغر، لأنه يأتي في صورة خاصة تدعو إلى التساؤل عن العوامل والأسباب التي تكمن وراء هذا التوظيف، وهذا ما سيتم الكشف عنه من خلال رواية "تجربة في العشق".

3. "تجربة في العشق" وتوظيف التراث

يعد توظيف التراث الثقافي ميزة من مميزات الإبداع الأدبي المعاصر، وقد تبدى هذا واضحا في رواية "تجربة في العشق" من خلال جمع كبير من التوظيفات والاحالات أو التناصات مع عوالم مختلفة ومتنوعة، مما جعل من هذه الرواية زخما متضافرا من المواضيع والأفكار، التي تتراوح فيها الفلتات والقفزات ما بين الحاضر والماضي، الداخلي المتعلق بالجزائر، أو الخارجي المتعلق بالوطن العربي، أو العالم ككل.

لقد ساهم في فتح المجال واسعا لهذه الفقرات أسلوب الرواية الهذياني، إذ أن طابع الهوس فيها يبعث على تشكيل صور فنية غاية في التأثير، والمفاجأة، فالكلام كلام جنون، ويجوز للمجنون ما لا يجوز لغيره، أي له أن يهذي بما يشاء.

في الوقت نفسه وبعد أن حصل الروائي على أحقية طرق كل موضوع وقول كل شيء على لسان شخصيته هذه، يأتي ليصوغ صوره المتقنة التي عبأها في قالبه الهذياني بحمولات معنوية غاية في الدقة، وعلى درجة كبيرة من الأهمية والخطورة، وكأنه يترجم بهذا المثل الذي يقول: "خذوا الحكمة من أفواه المجانين".

فتقنية الهوس والتشظي المسيطر على جسد الرواية، لم تخدم الرواية على المستوى الدلالي من حيث إبراز التشظي الروحي والقلق والتأزم النفسي فحسب، بل حتى على مستوى توظيف التراث لأنها فتحت المجال للاقتباس، والتناص وضرب الأمثال الشعبية، والاستشهاد بالأبيات الشعرية، والآيات القرآنية، ضمن كل متزاحم مكثف ظاهره الهذيان والهوس، في صور خليط متناثر، يأخذ من هنا وهناك دون رشد أو وعي أو تنسيق، لكن باطنه يغوص في جذور الذات العربية، ويتعمق في تصوير تفاصيلها المتألمة المختنقة ويظهر ما خفي من نقاط تأزم وتشتت عبر التاريخ البشري بأكمله.وتأثير ذلك على الذات الحساسة المبدعة.

فالروائي بأسلوبه هذا يلفت النظر إلى ما تحدثه الفوضى والقلق الخارجي من فوضى وقلق نفسي، وقد تغلغلا عبر جسد الرواية حتى طبعا لغتها، وبالتالي فالكتابة على هذا النحو تحمل رسالة استغاثة ضمنية فحواها نظفوا العالم من الفوضى والقلق، لننتج أدبا خال من التشظي والتمزق، وقد

استعان الروائي في بث رسالته هذه بكل ما تيسر له من ذخائر ومعلومات استقاها من مختلف السياقات التاريخية والأسطورية والدينية والشعبية والسياسية.

وسنحاول الوقوف على أبرزها المتمثل في:

1.3 توظيف التراث الأسطوري:

تعد الرواية المعاصرة تعبيرا عن حياة الانسان في هذا العصر، بما تحويه من أزمات ومخاوف، يشوبها القلق وعدم الاستقرار، وغياب الشعور بالأمان نتيجة الحروب، والصراع نحو اكتساب الأسلحة الفتاكة، إضافة للأزمات السياسية، والاقتصادية، والنفسية، والاجتماعية الكثيرة، فقد تضافرت مع بعضها البعض في خلق ذات متأزمة صارخة بالحيرة، ونابضة بالقلق.

هذه الحيرة، وهذا القلق، كانا حليفي الانسان منذ القديم، لأنه عاش بدوره أوضاعا مشابهة لما يعيشه في هذا العصر، خلقت في ذهنه قدرا هائلا من الأسئلة والمخاوف التي تحاصره لجهله بتفاصيل ذاته، وتفاصيل الطبيعة المحيطة به مع هولها وأخطارها وكوارثها، وهي في كلا الحالتين أسئلة ومخاوف لا يجد لها أجوبة أو ملاذا يرتاح فيه من وطأتها، وهذه هي تحديدا الحالة التي يتوحد فيها الانسان منذ بدايته الأولى مع الانسان المعاصر، فهي حالة التوتر والقلق والخوف، والرغبة في التحرر من القيود المحيطة به، ولأن إنسان البدائية الأولى أوجد قالبا مناسبا يرتاح فيه من هذه المشاعر ويقلل بين أحضانه الرحبة هول ما يحسه من ضيق، وهذا القالب هو الأسطورة وهي تتميز "بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس، إن السطوة التي تمتعت بها في الماضي، لا يدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث" [(11)].

يعد الفضاء الأسطوري في الرواية من أجمل الفضاءات لأنه يجمع بين الشاعرية الحالمة الممتزجة بضبابية الشعر، وعمق الفلسفة، وسحر الأسطورة وجاذبيتها. وقد تجسد هذا الفضاء من خلال العديد من التوظيفات والرموز،وتعد أسطورة "بروموثيوس" هي المسيطرة، لأن البطل يعيش في أجواء هذه الأسطورة لدرجة تتلاشى معها الحواجز المكانية والزمانية فيحل هذا الفضاء في جسد الكتابة، وجسد البطل ووعيه وفكره معا. في صورة يتصل ويتمازج فيها الأسطوري بالواقعي، فتستوقف عندها كل المقاييس والمعايير الواقعية، لتفسح المجال للمتخيل الروائي كي يؤدي دوره في توليد عالم سحري فاتن.

بروموثيوس أو برومته(Promitor) ورد في الأساطير اليونانية وهو من "ارتبطت أسطورته بخلق الإنسان وظهور الحظارة، فقد قيل أنبرومته خلق الانسان، وسرق النار من الإلهية في السماء، وحملها إلى الأرض ووهبها البشر كي يستطيعوا مجابهة أخطار الطبيعة، فغضب "زوس" وطلب من "هفايستوس" أن يصنع المرأة "باندورا"، ووهبها علبة احتوت على جميع الآلام والشرور، ثم قبض على "ثرومثيوس" وقيده إلى قمة أعلى الجبل في القوقاز، وكلف نسرا بانتهاش كبده، حتى إذا ما انتهت تجددت وعاد النسر إلى نهشها"[12].

فالبطل الذي يجد صورته في شكل برومثيوس هو رمز للمثقف المعذب الذي يعيش آلاما وشرورا غير منتهية بسبب ما يبذله من أجل إيصال الحقيقة وتنوير البصيرة، وتوعية العقول، فبرومته أيضا يعني الفكر المتبصر وأسطورته "ترمز إلى الإرادة البشرية الواعية والمثقفة" [13] لأنه وهب البشرية سر النار، والنار رمز النور، والتور رمز المعرفة والتكشف، والأسطورة رمز للتحدي والمواجهة أيضا، تحدي القوى الاستبدادية، ومواجهة ما يصدر عنها من شر وظلم، فهي إذن لا تكتفي بكونها بديلا غيبيا يحقق فيه الفرد المهزوم أحلامه ويعوض ضعفه، بل تنهج نهجا آخر تحريضي يحث على المقاومة والوقوف في وجه القوى المتسلطة، من أجل التغيير الاجتماعي الذي لا يتحقق إلا من خلال خوض غمار التجربة الإنسانية، وتحدي القوى الاستبدادية الكابحة للحريات.

من هنا كانت الأسطورة قالبا متميزا، لمجابهة الاستبداد السياسي بطريقة تتجنب فيها المبدع التصريح، تفاديا للارتطام بالرقابة المتحفزة للإمساك بكل إبداع ينتهك مقدسها السياسي، لذلك فقد عالجت رواية تجربة في العشق على لسان بطلها هذه القضية منطلقة من المحيط السائد في بلده الجزائر، لتسقط هذا الواقع على المجتمع العربي ككل وهو لا يحصر حديثه عن الأنظمة الفاسدة ضمن مرحلة زمنية محددة بل هي تشمل الأنظمة التابعة للاستعمار، وحتى ما بعد الاستقلال، فحالة الظلم والحصار هذه توحي بجو يدل على أنه: "ثمة ما يمكن وصفه بلعنة أسطورية، صفدت المجتمعات العربية في الأغلب الأعم منها، بأغلال سلطات منبتة الصلة بأي من مكونات الوعي السياسي الحضاري" [14].

لهذا كان الاستبداد أحد أهم هواجس الرواية العربية الحديثة بصفة عامة وروايات النزوع الأسطوري بصفة خاصة، فمن بين مسوغات تقنع هذه الرواية بالأسطورة، هو تعرية آليات الطمع

والبطش السياسي التي تعد أصل الشقاء المتجدد للفرد العربي وخاصة المثقف منه، وتجربة بطل روايتنا وعملية مصادرة مسرحياته، وغلق المسرح، وتوقيفه عن عمله دليل على ذلك.

كما أن الإبداع الفني الذي يميز كل ألوان التعبير الأدبية ما هو إلا عملية تكثيف للخبرة الإنسانية، وصياغة لها في قالب جمالي، والأسطورة في أصولها الأولى ماهي إلا ظاهرة اجتماعية تعبر عن محمل تأملات الجماعة وحكمتها، ولعل هذه السمة المميزة لاجتماعيتها هي ما قد يعلل عودة الأدب الدائمة إليها كلما أحس الانسان بالحاجة إلى تكييف جديد لعلاقته داخل الجماعة الإنسانية ولعلاقة الجماعة الانسانية بالكون، وكثيرا ما يحس الكائن الإنساني بمجموعة مشاعر على رأسها مشاعر العزلة والاغتراب. وقد كان الطابع الأسطوري قالب تعبيره الأمثل عنهما، فكما كانت الأسطورة الأداة التي اعتمدها البدائي لتوكيد طبيعته الإنسانية ووجوده الاجتماعي انفي شعور الرغبة عنه، كانت كذلك أداة الانسان المعاصر للكشف عن جذور غربته، ورغبته في نفي هذا الاغتراب. من هنا يتبين أن التوظيف الأسطوري في أي عمل أدبي ليس مجرد ترصيع له فحسب، بل هو استلهام لما في الأسطورة من دلالات ومعان، أي أن استلهامها لا يمكن في إعادة إنتاجها، بل في تفجيرها برؤى ومعان جديدة تحمل تعبيرا عن الواقع، كما استعملت في رواية "تجربة في العشق" تعبيرا عن تجربة البطل في المعاناة والاغتراب وسلبه حرية التعبير، وما عاشه من آلام بالغة هي آلام بروميثوس المتجددة الذي تنهشه الطيور، أما البطل فتنهشه آلام الاختناق والاحتباس والعزلة ومصادرة حريته في التعبير والابداع.

2.3 توظيف التراث التاريخي والسياسي:

يتميز نص تجربة في العشق بكونه يغرف من روافد التاريخ المختلفة ويستنبط منها مادة غزيرة ليشكل من جميعها قوالب ومحمولات يضمنها أفكاره الإيديولوجية الخاصة التي تتعلق "بنسق من المعتقدات والمفاهيم والأفكار الواقعية والمعيارية تسعى إلى تفسير الظواهر الاجتماعية المركبة من خلال منظور يوجه ويبسط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات، أي أن الإيديولوجيا هي: مجموعة قيم أساسية، ونماذج للمعرفة والادراك، ترتبط ببعضها وتنشأ بينها وبين القوى الاجتماعية والاقتصادية صلات قوية" [(15)].

وضمن هذا النسيج من القوى الاجتماعية، والرؤى السياسية والاقتصادية التي تنعكس على شخصية الكاتب، نجده يبحث لكيانه عن معنى، يتعلق "بموقفه ضمن التاريخ الأيديولوجي الذي

يؤطره، ويحدد شروط انتاجه للنصوص الروائية والأدبية" [16] التي غالبا ما توظف التراث التاريخي وتعيد إخراجه بصورة جديدة متعلقة بالنظرة الخاصة للأحداث والمجريات، فيصبح عندها الروائي مؤرخا لكثير من أحداث الأمة، ولتكون الرواية أكثر الأجناس مرونة في التعبير عن شخصية المثقف ومشاكله، وأزماته، بل إنها تعد من "أشد فنون الأدب الحديث مكرا ودهاء، فحيث تتعدد الشخصيات في الرواية، تتكاثر الآراء، وتتعدد وجهات النظر في محيط من الشخصيات الروائية المتباينة، ويصبح الأمر أشد صعوبة وأعسر مشقة إذا كانت هذه الشخصيات مثقفة" [17].

فالبطل في الرواية يعد أداة استكشافية لغوامض الأمور وخفاياها، وهو تجسيد الوعي التاريخي، لذلك فهو أصبح في حد ذاته تاريخا من خلال وعيه وفكره وما يضطرب في نفسه من تناقضات وتشكلات، مما جعله أداة شفافة تكشف عن تعقيدات وتأزم في علاقات المجتمع.

ومن بين ما ورد في الرواية من حمولات سياسية ذات أبعاد تاريخية لأنها تعبر عن تاريخ فئة من الفئات الإنسانية ضمن حقبة تاريخية معينة نجد مفهوم النظام العالمي الجديد في ظل القطبية الأحادية، وما خلفه في ذهن العامة: "المريكان ليس سهلا، وكل عرق فيكم، موصل إلى البنتاغون بواسطة خزانات الماء" [18]، وكذلك تصور البطل لعالم من دون نزاعات أو حروب أو أسلحة، فراح يتخيل صحونا طائرة تغير على أمريكا وتسلبها مصادر تفاخرها: "أيها الأمريكيون، العلم الأبيض، الذي يتوجب أن ينتصب فوق جميع البنايات وفي جميع الشرفات والنوافذ معناه: تسليم كل ما لديكم من مخزونات حربية، لتلقى في الفضاء الخارجي..." [19].

أما على مستوى واقع الأمة العربية فقد عالجت الرواية حاضرها المتأزم من خلال ذكر العديد من مواقف الانقسام في التاريخ العربي الإسلامي، وهذا دليل على درجة من الوعي الذاتي، الذي يظهر من خلال الجرأة على نقد الواقع العربي والوقوف على نفاط الانكسار، وقد أكدت هذه الانكسارات عبارة متكررة عبر كامل جسد الرواية وهي "منا أمير، ومنكم أمير" التي تترجم الانقسام والاختلاف الحاصل على مستوى الأمة العربية وعلى مستوى تاريخ الجزائر أيضا "لعبة التوازن معروفة زد الماء، زد الطحين، لا هو خيار ولا هو فقوس، شيوعي في الكفة، إخواني في الأخرى، رجل في البلطيق، وجل في المسيسيبي" [20].

وكذلك الحديث عن كيفية تسيير البلاد وحكمها في قول السارد: "كيف نحكم البلد... ن نن نحكم، نعم فأنا بدوري أحكم هذه الورطة، كلنا نحكم، ولا أحد يحكم حقيقة سوى "هم" [21].

لقد وردت كل هذه الانتقادات للواقع الاجتماعي والسياسي في صيغ وقوالب موحية بالتوتر والهذيان لأن الواقع المعبر عنه "يبعث على الجنون، هكذا على نحو مباشر وصارخ، فبنى الكاتب عالمه السردي على شخصية مجنون يعري الواقع في حالة قطرية هي الجزائر، فأما المجنون فهو المثقف العربي الذي يتجلى جنونه في سلسلة المواجهات الذاتية المتدفقة محاكمة لتاريخ، وتعرية لواقع... بدعابية قوامها السخرية والهجاء والهزء والمفارقة" [22]. ونجد هذا في مثل قول السارد: "أوقفوني بدعوى أن محتوى كلامي خارج عن الموضوع، الحل الوحيد أن أخرج لساني... يا خونة يا من تحفرون في ذاكرة هذا الشعب لتنسوه بشاعة أمسه، وفظاعة مستعمريه، ولتجعلوه يندم على تضحياته وعلى استقلاله" [23].

لذلك فالرواية تعد خطابا إيديولوجيا ناقما على الواقع، ومتألما لانهيار الثوابت والمفاهيم، مستدلة على هذا الانهيار والإقسام بأمثلة من التاريخ الذي لازال يكرر نفسه بمزيد من الحرقة والأسف يتركها في الذات العربية. إن نص الرواية إذن ترجيع للخطاب الإيديولوجي، الذي يدين بشكل أو بآخر التراجع عن الثوابت الوطنية والنزوع الأخلاقي، مثلما يدين التكالب الاستهلاكي الذي نجم عن التحولات الاجتماعية، في مدار التبعية، والأهم هو نقده للفاعلية السياسية والحزبية والفطرية المهمشة" [24].

3.3 توظيف التراث الشعبي:

تتوفر الرواية على كم هائل من المأثورات والأقوال الشعبية، وهي تعبر عن جزء هام من السلوكات والعقليات الخاصة بالمجتمع، كما ورد فيها بعض المعتقدات التي تعكس التفسيرات الغيبية للأمور، ووجود قوى خفية تقف من وراء الأزمات التي يعانيها الناس، من ذلك اعتقاد والدة البطل بوجود روح شريرة تسكن ابنها، ثم ذهابها إلى الإمام لكتابة التعاويذ، وكذلك صورة فجرية عند الناس فهم يعتقدون أنها جنية لسواد بشرتها، ولعدم مشابهتها لأحد في أسرتها.

احتوى النسيج الروائي أيضا على عدد مهم من الأقوال الشعبية والأمثال التي يقارب عددها حوالي تسعا تعشرين مثلا، وهي تحمل الكثير من الدلالات على البنية الاجتماعية، وتجارب الحياة، لأنها

تكشف عن الذهنيات الشعبية وقدرتها المدهشة على تلخيص معان ودلالات مكثفة في أقوال قصيرة ليبقى التراث الشعبي مصدرا ثريا ينهل منه الأدباء والمبدعون ولا عجب في ذلك؛ لأنه يمثل "جزءا هاما من ثقافتهم، أسهم في تكوين خيالهم ولغتهم وهم يدرجون، وأصبح مصدرا يستوحونه الصور، ويستلهمونه بأدواته الفنية في كتاباتهم وهم يبدعون" ([25]).

لكن توظيف الرواية المعاصرة للتراث الشعبي لا يقف عند هذا الحد اللاواعي في الحضور، أو لمجرد إيراده كمادة تستدعي أجواء شعبية معينة، بل إنه توظيف خاص، يتغلغل ضمن النسيج البنائي للرواية، لتتجاوز عندها المادة الشعبية الموظفة دلالاتها الاعتيادية إلى معان ودلالات جديدة تخدم الموضوع الرئيسي في الرواية. فالمبدع يعيد إحياء هذا التراث في سياق متميز يختلف من حيث الظروف والمكونات، لتختلف معه الدلالات والمعاني.

كما هو الحال بالنسبة لرواية "تجربة في العشق"، مما يزيد في عملية إثراء المعنى، وتفعيل عملية القراءة بإشراك المتلقي في إنتاج الدلالات والمعاني، لذلك فهو يجد نفسه يسهم في إنتاج النص وكأنه نلك له.

مما يميز الخطاب الشعبي أيضا صفة تختص به ولا نجدها في غيره من الخطابات الأدبية كونها تعبر عن فكرة الذات الأصيلة، وحقيقة الفرد المتجردة التي لا تزينها ثقافة أو إطلاع أو تعليم، والملاحظ سواء على مستوى الحياة ككل أو على مستوى الرواية تحديدا أن الانسان إذا كابد أهوالا ومتاعب شديدة، فهو ينشغل بالتعبير عن هذه المشاعر فينسى كل وسائل التعبير التي اكتسبها من التعلم والثقافة والاطلاع، فلا يجد قالبا أكثر مناسبة وأكثر تعبير من القالب الأصيل المعبر عن حقيقة ذاته إنه القالب الشعبي، ورغم مخالفة هذا الطابع للمكون المثقف أو المتعلم إلا أنه يزوده بصدق المشاعر ويثريه بحكمة الشعب المتجذرة، لذلك نجد أن المكون الشعبي المستعمل في الرواية ساهم وبقدر كبير في جمالية العمل الروائي وأضفى عليه إشعاعا خاصا مبعثه مكامن الحكمة، والصدق والعراقة الشعبية.

كما ساهم من جهة أخرى في الكشف عن جوانب من شخصية البطل الذي لم تنتزعه ثقافته الغربية وميوله الفكري الإيديولوجي من التشبث بتراثه، بل الافتخار به، لأنه أدرك ما يحويه من تجارب صادقة تنبع من جوهر الإنسان وبطريقة عفوية، وهو شيء زاد في تميز البطل من حيث احتواء ذاكرته لمخزون وزخم تراثي لا ينضب، ليصبح بهذا البطل ذاته ذا قيمة مضمونية، لأن أساسيات الموضوع

ترتكز عليه. إضافة للقيمة الجمالية المتأتية من طريقة الربط بين مختلف الأحداث والشخصيات والأمثال والقصص والأغاني الشعبية، ربط ظاهرة الفوضى والهذيان في صورة لا يمكن اكتمالها إلا بعد تفعيل عملية القراءة بين النص والقارئ، لينكشف مدى وعي وخبرة كبيرين تعامل فيهما الروائي مع أمور في غاية الحساسية والخطورة.

4.3 توظيف التراث الديني:

استعانت الرواية بعدد مهم من الاقتباسات من القرآن الكريم، كما أوردت آيات، وأفكار متعلقة بالتاريخ الديني مثل: "أبي ذر، أبو سفيان، لا حياء في الدين، منا رسول ومنكم رسول، الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين، ما أنا إلا بشر مثلكم...".

وقد أسهمت جميعا في إبراز المكون الثقافي للمبدع، المتأثر بالقرآن الكريم، ويعد تعبيرا عن نضج وخبرة الروائي الذي خاض تجربة البحث عن ذاته ضمن القوالب الغربية المستعارة فوجد أنها لا تترجم شيئا من مكونه الحقيقي، لذلك عمد إلى تزكيتها وإحيائها بمضامين محلية تعبر عن شخصيته وانتمائه.

إضافة إلى الغرض الإيديولوجي الذي ركز من خلاله المبدع على إبراز مواقف وأسماء بعينها، لكونها تحيل على جوانب من الصراع والتناحر من أجل السلطة عبر التاريخ الإسلامي، أو تترجم نظرة بعض الفئات التي تركز على الشكل دون الجوهر بمثل: ثلاثة مساجد، رغم أن لكل واحد منها صومعة تناطح السماء، فإن المؤذن لا يكلف نفسه إطلاقا، قطع الدرج ذهابا وإيابا ليعلن من هناك..." [26] وغيرها من أمثلة تنتقد الانشغال بالخلاف حول مسائل شكلية مثل الوضوء وكيفية أداء الصلاة... مع تناسي أمور أخرى أجدر بالبحث والفهم، تتعلق بالجوهر.

5.3 توظيف التراث الأدبي:

انتشرت عبر الرواية أسماء متنوعة لأعلام من عالم الأدب مثل المعري والبردوني، كما ورد فيها عناوين لأعمال أدبية ومسرحية، واقتباس أو استشهاد بأشعار وغيرها، وكلها ترجمة للعلم الفني والأدبي الذي ينتمي إليه البطل باعتباره مؤلفا ومبدعا مسرحيا.

لكن البعد الذي أضفاه الروائي على هذه المادة أعمق من مجرد البوح بالانتماء الثقافي أو المستوى الذي يحتله البطل، وخاصة عندما استعمل بيتا شعريا، وركز على استخلاص ما فيه من

معان ليدلل بها على تجربته الخاصة وهي تجربة العشق الجارفة التي يعايشها، ولأن هذا البيت يلخص مراحل هذه التجربة التي عايشها البطل بكل وجدانه، مرحلة النظرة، الابتسامة، الكلام، الموعد، اللقاء.

كما نجد توظيف كم معتبر من الألفاظ المستوحاة من عالم الصوفية لأنها الأنسب من حيث التعبير عن تجربته العشقية مثل: الإيماءة الربانية، الأزل، التوحد، الصفوة. وقد تميزت تجربة العشق التي عاشها البطل بالغرابة، ويكتنفها نوع من الغموض والإبهام، وهي الأجواء ذاتها التي تتميز بها التجربة الصوفية ومرد ذلك هو سمو ورفعة معانيها التي لا يطالها أو يبلغها إلا الأقلية.

أما مكمن الغرابة والإبهام في تجربة البطل العشقية كونها قائمة بين طرفين أحدهما بشرى ومعروف هو البطل، أما الطرف الآخر فهو عمود هاتفي، ليعبر من خلال هذه التجربة عن حالة التأزم الشديدة التي يعانيها البطل، فهي أزمة اتصال أو تواصل، يتوفر أحد أقطابها بكل ما يحمله من حب وأمل وتحفز ورغبة في الحب والعطاء وخوض غمار التجربة، لكنه يصطدم بقساوة واقع أليم يغيب فيه القطب الآخر المكمل لهذه التجربة، فلا يجد البطل لنفسه حينها غير العمود الهاتفي ليكون بديلا دالا على مأساوية الوضعية المعيشة، وعلى فظاعة الحالة التي يعيشها المثقف العربي الذي حرم من حقه في التواصل.

– خاتمة:

في الأخير يمكن القول إن رواية "تجربة في العشق" تجسد وجها خاصا من الحياة، لا يقع الاختيار عليه إلا بعناية وتمكن، فهي لا تمثل قطاعا مستويا من الحياة العادية، لأنها تجميع للحظات هذيانية جنونية، يجري فيها الايقاع الروائي بمعدل يتماشى مع سرعة الهواجس والخواطر المكثفة المتراكمة في ذهن البطل ونفسيته، لذلك فالمنطلق الشعوري هو مبعث بناء الرواية ومرتكزها.

قدم النص عوالم تخييلية مختلفة تتنوع ما بين الأسطورة والأمثال الشعبية والأشعار والآيات والرموز، والتاريخ. وردت جميعها في شكلها الممتزج المتمرد على المألوف، الذي تخرقه محاولة خلق عالم متفرد، هو بمثابة إثراء للتعبير الأدبي وتحرير له من الرتابة والتعبير الواقعي المألوف، إنه يشرك المتلقي في صنع دلالاته بعملية التأويل والقراءة، واستنطاق المسكوت عنه أو المغيب، وهو تشخيص عميق

للواقع، وتفسير بعيد له، كما أنه تنديد بالفوضى والاستبداد وكل المعاني التي تصدع الكيان الإنساني، وتشوه حياته.

وهي أيضا نص متعدد المعاني لتعدد العوالم التي استقى منها، تعدد يكتنفه الغموض لأنه "يدمر لدى المتلقي واحدية المعنى وسهولته وانصياعه لشفرات سهلة مبذولة، يجبره على بذل جهد لم يتعود بذله من أجل إنتاج قراءة ممكنة بين قراءات عدة" [27].وذلك من خلال القالب الهذياني الذي يستدعي كما هائلا من النصوص التي تمازجت فيما بينها لتشكل لوحة متميزة، زاد من رونقها الظلال الشعبية، والدفء والحنين المنبعث من التراث لذلك فمن عوامل خصوصية الرواية المعاصرة وتفردها، اعتمادها على توظيف التراث بجميع مكوناته، مع ما تعمل عليه من دلالات و تحميلات تمنحه روحا جديدة قادرة على التعبير عن الواقع الانسيابي عبر مختلف الفترات الزمنية.

-الهوامش والإحالات:

(1) صلاح الدين بوجاه، "مقالة في الروائية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1994، ص 20.

(2) ألبيريس، الاتجاهات الأدبية الحديثة، تر: جورج طرابيشي، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، 1983، ص 16.

(3) صلاح الدين بوجاه، مقالة في الرواية، ص 104.

(4) الطاهر وطار، "تجربة في العشق"، دار الاجتهاد، الجزائر، 1989، ص 116.

(5) المرجع نفسه، ص 97.

(6) المرجع نفسه، ص 105.

(7) ألبيريس، الاتجاهات الأدبية الحديثة، ص 20.

(8) الطاهر روابنية، الكتابة وإشكالية المعنى، مجلة التبيين، الجزائر،عدد 6، 1993، ص 90.

(9) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1990، ص 28،

(10) ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ت: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1982، ص 105.

(11) فراس السواح، الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1997، ص 14.

(12) طلال حرب، معجم أعلام الأساطير والخرافات، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، باب الباء.

(13) المرجع نفسه، باب الباء.

(14) نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001، ص 80.

(15) طه وادي، الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1996،ص 122.

(16) عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 122.

(17) عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة، بيروت، 1985، ص 96.

([18]) الرواية، ص 100.

([19]) الرواية، ص 67-68.

([20]) الرواية، ص 100.

([21]) الرواية، ص 131.

([22])عبد الله أبو هيف، أزمة الذات في الرواية العربية، مجلة عالم الفكر، الكويت،المجلد 24، العدد 4، أبريل-يونيو 1996، ص 235.

([23]) الرواية، ص 183.

([24]) عبد الله أبو هيف، أزمة الذات في الرواية العربية، ص 236.

([25]) عبد الحميد بورايو، منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 101.

([26]) الرواية، ص 192.

([27]) نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية، ص 161.

-قائمة المصادر والمراجع:

1- الطاهر وطار، "تجربة في العشق"، دار الاجتهاد، الجزائر، 1989.

2- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1990.

3- صلاح الدين بوجاه، مقالة في الروائية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1994.

4- طلال حرب، معجم أعلام الأساطير والخرافات، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

5- طه وادي، الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1996.

6- فراس السواح، الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1997.

7- عبد الحميد بورايو، منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
8- عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة،بيروت، 1985.
9- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
10- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ت: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1982.
11- نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001.
12- عبد الله أبو هيف، أزمة الذات في الرواية العربية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 24، العدد 4، أبريل- يونيو 1996.
13- الطاهر روابنية، الكتابة وإشكالية المعنى (قراءة في بنية التفكك في رواية تجربة في العشق للطاهر وطار)، مجلة التبيين، الجزائر، عدد 6، 1993.